دعوة إلى الحذر من الفتنة ! :

د. رياض نعسان أغا

لم يكن مفاجئاً أن يتم توظيف الفاجعة المذهلة باغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري للضغط الأشد على سوريا، مما جعل السوريين يعيشون فاجعتين معاً، الأولى فاجعة فقدهم للحريري الشقيق والصديق الذي بادلته دمشق حباً بحب ووفاءً بوفاء، والفاجعة التي لا تقل مرارة عن الأولى أن تتهم سوريا بالمسؤولية عن مقتل صديقها الكبير الذي لم يكن الخلاف السياسي الأخير معه أبعد من وجهات نظر تختلف وتلتقي في إطار معتاد في الحوار السياسي المستمر بين سوريا ولبنان، لم يتجاوز قط حدود المسؤولية الوطنية المتزنة لدى المتحاورين وكانت تحتويه رحابة الصداقات الضخمة التي تربط الحريري كما تربط كثيرين من رموز المعارضة اللبنانية الوطنية مع قيادات سورية في كل مستوياتها، وأهمها صداقة الشهيد الحريري العميقة مع الرئيس بشار الأسد وهي امتداد واستمرار لصداقة عريقة ربطت الحريري لعقود مع الرئيس الأسد الراحل، وهذا ما كان يؤكده الحريري، بل ألح على تأكيده في حواراته التلفزية الأخيرة. وأحسب أن روح الحريري التي تطوف الآن وتحوم حول الزمان والمكان تستنكر أن يستغل أحد مصرعه لضرب أصدقائه، ولضرب الوفاق الوطني اللبناني، ولجعل مصرعه فخاً لسوريا، وإنذاراً بعودة الفتنة التي أخمدتها سوريا قبل ثلاثة عقود حيث استشهد الآلاف من الشباب السوريين في لبنان، ومزجوا دماءهم السورية بالثرى اللبناني وكان الإنجاز الضخم، إحباط المخطط الصهيوني الهادف إلى تقسيم لبنان، وإيقاف الحرب الأهلية التي استنزفت دماء شعب لبنان، وإعادة بناء الدولة، والمؤسسات وتمكين هذه الدولة من سيادتها الكاملة، ثم مساعدة الأشقاء اللبنانيين في المقاومة الباسلة التي مكنتهم من تحرير الجنوب. لم تكن المهمة السورية سهلة، فقد جلبت لها مشاعر الكراهية والبغضاء من كل من تضرر من إحباط المخطط الصهيوني، ومن كل من فشل في محو عروبة لبنان وإلحاقه بإسرائيل، ومن فشل في وأد المقاومة اللبنانية، ومن أغاظه أن تنتصر المقاومة.
كما كان على سوريا أن تواجه بصبر كل من سولت له نفسه أن يصير زعيماً على حساب وحدة لبنان، وكل من تشهىّ أن يصير رئيس حكومة منشقة ولو على حساب الشرعية والسيادة اللبنانية. وقد تمكنت سوريا بفضل نضال اللبنانيين الشرفاء من تحقيق الأهداف اللبنانية الوطنية، ودعمت بكل طاقاتها الحكومات اللبنانية التي أعادت إعمار لبنان وبناء مؤسساته، وأهمها حكومات الحريري رجل البناء والاعتدال والوطنية بكل جدارة، الذي كان يجد في دمشق كل العون، وكان من أشد المحافظين الأمناء على عروبة لبنان، وعلى صمود المقاومة اللبنانية.
ولكي لا تأخذني العصبية لكوني سورياً فتبعدني عن الموضوعية، أعترف بأن الجنود الذين أرسلتهم سوريا إلى لبنان لم يكونوا من صنف الملائكة، بل كانوا بشراً يخطئون ويصيبون، وفيهم من قد لا يعي جيداً خطورة تصرف فردي سيئ، وفيهم من أفسدته الحرب، ولكن فيهم من قاتل واستشهد دفاعاً عن لبنان وعن سوريا. والكثرة المطلقة من الضباط والجنود السوريين في لبنان، شباب شرفاء مخلصون لوطنهم ولقوميتهم قضوا سنوات شبابهم متربصين يتعرضون للعدوان الإسرائيلي شبه اليومي، ويقفون على المعابر، يدافعون عن أمن المجتمع اللبناني. ومنذ أن هدأت الحرب الأهلية ابتعدوا عن المدن، وباتوا يعيشون في الثكنات البعيدة، وقد عقدوا مع أكثرية الشعب اللبناني صداقات أخوية تشهد بها دمشق وبيروت اللتين هما أكثر عاصمتين عربيتين تواصلاً يومياً بين شعبيهما، وقد باشرت سوريا الانسحاب من لبنان منذ بضع سنين بعد أن اشتد ساعد الدولة اللبنانية، ولم يبق من الجيش السوري في لبنان إلا عدد محدود ينتظر العودة إلى سوريا حين تعلن الحكومة اللبنانية انتهاء المهمة .
ومن المفارقات المريبة أن سيناريو الفتنة الفاجعة انطلق بوضوح قبل يوم واحد من حدوثها، حيث نشرت صحيفة لبنانية شهيرة إنذاراً تحت عنوان "تحذير جديد من التعرض لأي من رموز المعارضة اللبنانية" قالت فيه مراسلة الصحيفة: إن تعرض وليد جنبلاط أو رفيق الحريري لأية محاولة اغتيال سيشكل نقطة القطيعة النهائية بين سوريا

والأسرة الدولية. وقد أذهلني أن يتم اتهام سوريا باغتيال الحريري قبل أن يستشهد الرجل بيوم، حيث بدا واضحاً أن هناك من يخطط لقتل أحد الرجلين "الحريري أو جنبلاط " فقط من أجل أن يتهم سوريا بارتكاب الجريمة، ولكي يصعد الضغط عليها، ولكي يفجر المنطقة كلها، ولكي يمنع الحوار السوري مع رموز المعارضة اللبنانية من أن يحقق مزيداً من النتائج الإيجابية التي جسدتها زيارات السيد وليد المعلم لبيروت. وكان (المعلم) قد زار الحريري في منزله قبل أسبوع من الفاجعة، وكان اللقاء أخوياً ووديا. و قد علمت أن الحريري الراحل تحدث هاتفياً مع السيد المُعلم ثلاث مرات خلال الأسبوع الذي سبق رحيله، وكان في المحادثة الثانية يهنئه برأس السنة الهجرية، وكانت المحادثة الثالثة تتعلق بترتيب زيارته إلى دمشق في الأسبوع القادم، حيث وصل الحوار إلى إعلان الحريري تفهمه للموقف السوري وتجاوبه مع هذا الموقف واستعداده للتنسيق مع سوريا لاستعادة اللحمة بين اللبنانيين تحت سقف الطائف ومعاهدة الأخوة. كما أن صديق الحريري القديم السيد عبدالحليم خدام نائب الرئيس السوري زار الحريري في منزله قبل أيام من رحيله زيارة ودية، حيث لم تكن الجفوة السياسية بين الحريري وسوريا تمنع من التواصل اليومي، بل لقد زالت أسباب الخلاف السياسي نهائياً في صباح يوم اغتياله حين أعلن الحريري في جريدة "السفير" التزامه بسقف الطائف. وكان الأسبوع الذي سبق جريمة الاغتيال ينبئ بانفراج كبير، ولا سيما بعد أن أكد مبعوث الأمم المتحدة تيري رد لارسن قلق اللبنانيين من الانقسام الخطير الذي أحدثه قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ ومحاولات بعض الجهات الدولية فرضه بمعزل عن قرارات مجلس الأمن الأخرى. وكان من دواعي التفاؤل وصف لارسن لمحادثاته في دمشق "بأنها كانت مشجعة للغاية وبأننا منخرطون في تعاون وشراكة عميقة لمصلحة لبنان وسوريا، آخذين بعين الاعتبار الروابط التاريخية بين سوريا ولبنان، وكذلك اتفاقية الطائف لعام ١٩٨٩ ومعاهدة الأخوة والتنسيق الموقعة بين البلدين عام ١٩٩١."

بدا الهدف من قتل الحريري إثارة الفتنة الطائفية في لبنان من جديد، وتحقيق ما أخفق الإسرائيليون في تحقيقه قبل ثلاثة عقود، مستفيدين اليوم من الخلل في التوازن الدولي، ومن وجود القوات الأميركية على الأبواب السورية، ومراهنين على أن الضغط الأشد على سوريا سيجعلها تفضل الرحيل من لبنان على الوقوع في مواجهة مع الولايات المتحدة ومع حلفائها، ومتوقعين أن تغلق سوريا الباب اللبناني على نفسها كي لا تهب عليها منه رياح الفتنة، فلا يبقى أمام لبنان غير الباب الإسرائيلي مفتوحاً، وهو باب جربه بعض اللبنانيين الذين شكلوا جيشاً لحماية إسرائيل، فلم يحصدوا غير الخيبة وسواد الوجه. وإن كان بعض المعارضين الوطنيين قد أدلوا بتصريحات غير لائقة بكونهم أشقاء لسوريا وهم في دوامة الصدمة والانفعال، فإن صوت الحكمة أجدر بأن يعلو، وأن يرتقي الجميع إلى مستوى الحكمة التي ميزت الشهيد الحريري الذي كان يعلن دائماً أن سوريا هي عامل حاسم في استقرار لبنان وأمنه، وهي التي حلت الميليشيات المتقاتلة، وهي التي ساعدت على بناء الجيش اللبناني وزودته بما يحتاج إليه لكي يصبح قوياً وقادراً.
وكان الشهيد الحريري يؤكد دائماً أن الخطر الذي يتهدد لبنان وسوريا خطر واحد لأن العدو واحد. ويستدعي صوت الحكمة إيقاف الاستغلال البشع للجريمة بهدف اصطياد سوريا والإيقاع بها في فخ مرسوم بدقة، وإغلاق الأبواب أمام العملية السياسية التي استبشرنا بها خيراً في رؤية دبلوماسية في مقالنا السابق "نريد الحوار ولا نريد الحرب" وكنا نخاف دائماً من حدوث انفجارات حين تجد إسرائيل نفسها مضطرة لمواجهه الاستحقاقات وقد أرهقتها مؤخراً دبلوماسية أبو مازن في فلسطين حين استطاع أن يقنع المقاومة بإعطائه فرصة للعمل السياسي ولبَّت المقاومة طلبه. كما أن انطلاق العملية السياسية في العراق فتح نوافذ أمل أمام العراقيين، وكانت دمشق قد أعلنت استعدادها للعودة إلى مفاوضات السلام بدون شروط مسبقة، وللتعامل بإيجابية مع القرار ١٥٥٩ على أن يطبق مع كل القرارات الدولية التي ترفض إسرائيل تطبيقها منذ عشرات السنين. كما أن ابتعاد دمشق عن أي تدخل في الشؤون اللبنانية الداخلية، ونجاح التعامل الرسمي الدبلوماسي الذي حققته زيارات السيد المُعلم شكل أرضية جيدة لتحقيق الوفاق الوطني في لبنان، وكل ذلك يفوت على إسرائيل أن تستمر في تحريض الولايات المتحدة على سوريا ولبنان، ويجهض مخططات من يريدون تهديم البنى الاقتصادية والسياسية العربية، وتدمير كل ما أنجزه العرب، وتحويل مدنهم إلى خرائب، وإقامة دويلات ضعيفة إلى جوار إمبراطورية الصهيونية .

العدد ١٠٨٢٠ بتاريخ ٠٥/١٨/٠٢ www.wajhat.com
مؤسسة الإمارات للإعلام www.emi.ae